8

ودارت الأيام

obeikandl.com

obeikandl.com

كانت الأحزان موزعة على الجميع.. ذهبت أم كلثوم إلى عزلة في بدروم أحزانها، وفي منزل جمال عبد الناصر بمنشية البكري كانت هناك عملية جرد لخزينة القائد الذي رحل فقيرًا إلى الله ، وكانت أم كلثوم الحاضر الغائب في عملية الجرد.

يحكي سامي شرف مدير مكتب جمال عبد الناصر في كتابه: «عبد الناصر كيف حكم مصر؟ » أنه وبعد رحيل عبد الناصر، وبحضوره، جاء أنور السادات، ومحمد أحمد السكرتير الخاص لعبد الناصر، والسيدة الجليلة تحية كاظم، وأبناء عبد الناصر خالد، وهدي، وزوجها حاتم صادق، ومني وزوجها أشرف مروان، وتم فتح الخزينة الخاصة بجمال عبد الناصر، وبعد إحصاء «الفلوس» الموجودة وتسجيلها في محضر رسمي، واعتبارها من أموال الدولة، شاهد الجميع على الرف العلوي في الجهة اليسرى للخزينة، كتابًا كبير الحجم يشبه القاموس، وعلى الرف السفلي حقيبتان جلد في حجم ٤٠ سم، أو ٥٠ سم لونها بني فاتح، وكان بداخل الحقيبتين أول تسجيل من كل أغنية جديدة لأم كلثوم كان يرسلها عبد القادر حاتم وزير الإعلام إلى جمال عبد الناصر».

ويقول سعد الدين وهبه: ظلت لأيام طويلة في عزلة تامة، لا ترد على التليفونات، أو تجلس مع أي إنسان، أو تصرح بأي شئ، وكان البكاء فقط هو التعبير الوحيد عن أحزانها، وكل من راقب حالتها في مثل هذه الأيام تصور أنها لن تغني مرة ثانية.. وأن صفحة الفن ربما انطوت تمامًا من حياتها، وتم تأجيل حفلتها الشهرية أكثر من مرة حتى يتاح لها فرصة لاختيار قصيدة تبدأ بها الموسم عن جمال عبد الناصر، وذلك من بين الخطابات والبرقيات العديدة التي وصلتها من كل الدول العربية، وبالفعل وقع اختيارها على قصيدة لنزار قباني، «رسالة إلى جمال عبد الناصر».

كتب نزار قصيدته في ٢٥ أكتوبر ١٩٧٠ ونصها :

« والدنا جمال عبد الناصر :

عندي خطاب عاجل إليك ..

من أرض مصر الطيبة

من ليلها المشغول بالفيروز والجواهر

ومن مقاهي سيدي الحسين ،من حدائق القناطر

ومن ترع النيل التي تركتها ..

حزينة الضفائر ..

عندي خطاب عاجل إليك

من الملايين التي قد أدمنت هواك

من الملايين التي تريد أن تراك

عندي خطاب كله أشجان

لكنني ..

لكنني يا سيدي

لا أعرف العنوان»

أما ظهورها الأول في الحفلات بعد فجيعة رحيل عبد الناصر فكان في يوم الخميس الأول من فبراير عام ١٩٧١م أي بعد رحيل عبد الناصر بثلاثة شهور، وقدمت في حفلها، أغنية «ودرات الأيام»، وأثناء الأغنية، انسابت دموعها مع الكلمات.. يتذكر سعد الدين وهبه: « «حدث شرخ في صوتها، ولم تستطع مقاومة البكاء، وابتعدت عن الميكروفون، لكن الجمهور استمع إلى بكائها، ونزلت الستارة لتغطي على هذا المشهد المأساوي»، يضيف سعد: تذكرت عبد الناصر وهي تردد «ودارت الأيام/ وقابلته/ ونسيت إني خاصمته/ وسامحت عذاب قلبي وحيرته / معرفش إزاي أنا كلمته » وكان هذا المقطع كما أخبرتني قد سمعه عبد الناصر منها حين كان يطمئن منها قبل رحيله

على ألحانها الجديدة، وما سوف تقدمه في حفلاتها المقبلة».

كانت الحفلة وما حدث فيها تأكيدًا لاعتقاد من قالوا : إن أم كلثوم ماتت فنيًا بموت جمال عبد الناصر.. هذا ما يقوله الكاتب والسيناريست محفوظ عبد الرحمن: الذي ظل شهورًا طويلة يبحث ويقلب في سيرتها لكتابة مسلسل (أم كلثوم)، الذي حاز على إعجابا جماهيريًا بالغًا من المحيط إلى الخليج ، ويضيف محفوظ :« لو كان الأمر بيدي كاملًا في المسلسل، لتوقفت في سيرة حياتها عند اليوم الذي حملت فيه الملايين نعش جمال عبد الناصر».

أما عمار الشريعي فيتذكر قائلاً : «احترفت الموسيقي قبل شهور من حفلة أغنية «ودارت الأيام» في فبراير ١٩٧١م.. وكنت بصحبة أصدقاء لي نستمع إلى هذا الحفل، ولما حولت الغناء في الكوبليه الأخير إلى موال، بكت، وابتعدت عن الميكروفون.. لكن البكاء طلع، فصفق الجماهير بجنون.. وقلنا جميعًا في صوت واحد.. هي افتكرت عبد الناصر، و في اليوم التالي للحفل قال الناس نفس ماقلناه ، وهذه الواقعة أكدت لي موتها فنيًا، ورغم ذلك كان لابد لها من مواصلة الغناء في السنوات الأربع التي عاشتها من بعده، فلو اتخذت قرارًا بالاعتزال فور رحيل عبد الناصر، كان الأمر سيعني موت قيمة من أكبر وأجمل القيم التي زرعها عبد الناصر، وسيكون هذا لدي الشعب المصري وزرًا لن يغفره لها ،ويقطع عمار بالقول «كان لازم أحد غير عبد الناصر يدفعها إلى الاعتزال، أو تبقي حتى رحيلها».

كان الموت بمعناه الآخر يلاحق أم كلثوم التي عاشت ملكًا متوجا في ظل الثورة.. اختلف الأمر بمجيء أنور السادات ..يقول محمد حسنين هيكل: بعد وفاة عبد الناصر أحست بصدمة كبيرة جدًا، أثرت فيها كثيرًا أحداث ١٩٦٧، ولكنها لم تتراجع بل اندفعت تغني أكثر للمعركة، لكن بعد وفاة عبد الناصر أحست بنوع من اليتم ككثير من المصريين والعرب، وفي يوم من الأيام كنا «معزومين» عند سيد

مرعي، وكان نائب رئيس الوزراء ورئيس مجلس الشعب في مصر، وكان شخصية مرموقة ومهمة، والذي رأي هذه الحادثة عدد محدود لا يزيد على العشرة أشخاص، المهندس سيد مرعي وحرمه، أخوه مرعي مرعي وحرمه، أنا ومراتي، الرئيس السادات وحرمه، يضيف هيكل: اللي حصل أن السادات جاء يومها «لابس» بليزر أسود وقميص أبيض، أم كلثوم نظرت إليه، قالت له: «إيه ده يا ريس أنت عامل أبيض وأسود زي الشجر في الضلمة».. ضحك السادات، لكن حرمه تضايقت، فخرجت واستدعت حرم سيد مرعي، ويبدو أنها كانت متضايقة، وبعد ذلك استدعوا زوجتي، وأنا أيضًا طلعت للخارج، وقالت لي حرم السادات يرضيك هذا؟.. قلت: إنها تقول نكتة، بعد شوية مشوا، وانتهت المشكلة، وهذا الذي حصل بهذه الحدود.

ويضيف هيكل: كان هذا بداية المشكلة لكن تطورت الأمور، وأم كلثوم لم يكن لها مزاج للغناء بعد موت عبد الناصر، وبدأت صحتها تتدهور، ثم فكرت في مؤسسة أم كلثوم الخيرية، والمشروع لم ينجح أو اعترض عليه بشكل أو بآخر، وماتت بعده بحسرة».

ولا ينسي هيكل التأكيد على أن أم كلثوم هي من أهم الشخصيات النسائية التي عرفها.. يقول: «أنت أمام سيدة عندها إرادة قادرة أن تثبت نفسها، لكن عندها إرادات أخري، أصيلة، صديقة، لما اختلفت مع الرئيس السادات، وكان اللقاء معه مشكلة.. تركته وذهبت، هو عينني مستشارًا له، وقلت أنني لن أذهب، ثم أحالني للتقاعد، لكن كان واضحًا لأي إنسان أنه بداية خلاف، قلت تصريحًا جاء فيه: «إنني استعملت حقي في إبداء الرأي، والرئيس السادات استعمل حقه في إقصائي عن الأهرام، واعتبر هذا شرخ.. «إزاي لأحد أن يقف هذا الموقف أمام رئيس الجمهورية».. رغم ذلك جاءتني.. ولم أجد رجالًا كثيرين مثلها.. ورأيتهم أمام

السياسيين والسلطة بنوع من الانكسار، أم كلثوم لم يكن لديها انكسار بوجه السلطة».

وصف هيكل لأم كلثوم بأنها «لم يكن لديها انكسار بوجه السلطة».. توصيف يبعث على التأمل في مسيرة هذه السيدة.. أو بالأدق هو تلخيص في وصفه لها، فهي بدأت الغناء مع الملك فؤاد، وتعاطفت شأنها شأن باقي المصريين مع سعد زغلول.. وركبت سلم المجد في عصر فاروق، لكنها تعاملت معه بنوع من الذكاء السياسي، وكلما توافرت الفرصة لها للتأكيد على استقلاليتها فعلت.. وتوحدت مع عبد الناصر قولًا وفعلًا، ورأت فيه نموذج القيادة التي تحلم بها.. وبقدر ما كانت تخطو خطوة نحو نظامه السياسي.. كان النظام يخطو إليها خطوتين، وعلى الرغم من التقدير المتبادل تم ترشيحها لجائزة الدولة التقديرية عام ٥٩، ولم تحصل عليها إلا في عام ١٩٦٧م، والمؤكد أنها باتصالاتها كانت تعلم مبررات الرفض طوال السنوات الثماني، لكنها لم تشكُ لعبد الناصر وكانت قادرة على ذلك، حتى علم هو بالأمر بنفسه.. ليس هذا فحسب بل إنها حدثته في أمر اعتقال مصطفي أمين دون حساب أي مخاطر قد تحدث.. ومع السادات وحسب إجماع كل من عرفها أنها ماتت فنيًا بموت عبد الناصر، لم تتعامل مع السلطة الجديدة بسعي تحدي البقاء على أنها السيدة الأولي، كما تعاملت في عصر عبد الناصر، أو صاحبة العصمة كما تعاملت في عصر فاروق.

وعلى كل الأحوال، ورغم تأكيد هيكل على القصة المشار إليها سابقًا، إلا أن السيدة جيهان السادات، حرم أنور السادات تنفي حدوثها نهائيًا وتقول: «أم كلثوم ست ذكية وفاضلة ولم تخطئ أبدًا، حتى القصة هذه تخليك تحس أن أم كلثوم غلطت في أنور السادات، وأنا بأصلح لها، ده الكلام اللي بيتقال، أم كلثوم عمرها ما غلطت.. وكانت شديدة الذكاء، وكانت تحب أنور السادات جدًا، وتحبني جدًا.. أم

كلثوم وأنا باحبها وباحب صوتها وكنت أحضر حفلاتها، وفي آخر أيامها كنت أقرب الناس إليها».

حاولت أم كلثوم أن تضع كل جهدها في مشروع خيري ضخم بعد رحيل عبد الناصر يقوم برعاية اليتامي، وتلحق به دار سينما ومسرح، وتقدمت إلى الجهات الرسمية بالمشروع، لكنه نام في الأدراج، ودخل في سراديب.. في المقابل أعلنت جيهان السادات عن مشروعها المماثل «الوفاء و الأمل» وسخرت كل وسائل الإعلام في الدعاية له، بينما تحول الأمر عند أم كلثوم لنوع من الاستجداء في الحصول على الموافقات على مشروعها كما يقول سعد الدين وهبه، وتنفي جيهان السادات ذلك، وتعتبره مجرد كلام: «ليه؟ أحاربها؟ أنا أقول حقائق وليس مجرد كلام، بالنسبة لمشروعها اسأل - تقول للصحفي - في وزارة الشئون الاجتماعية ستجد أن جمعية الوفاء والأمل تم تسجيلها في سنة ١٩٧٢م وهذا مثبت في الدفاتر، جمعية أم كلثوم تم تسجيلها في سنة ١٩٧٣م، يعني بعدي مش قبلي، ثم أهاجمها ليه، ده أنا باحب الجمعيات الخيرية اللي تخدم بلدي، وأشجع الناس عليها، وأتمني مش بس أم كلثوم، ألف واحدة غير أم كلثوم تعمل جمعية وتساعد بلدها.. هذه افتراءات لا أساس لها»..

يرد سعد الدين وهبة على ذلك.. «كان حمدي عاشور محافظًا للقاهرة، وكان صديقها، وكنت أنا وقتها عام ١٩٧١ رئيس الشعبة المحلية للاتحاد الاشتراكي في المحافظة، وعرض على المجلس تخصيص الأرض الخاصة بمشروعها وراء فندق ميرديان، ولكنني اعترضت، وقلت أن هذا ليس من حق المجلس بل يجب أن يذهب الموضوع برمته إلى مجلس الشعب، وكان هذا محل خلاف بيني وبين حمدي عاشور الذي أبلغها رفضي.. ومن جانبها لم تستكبر على الاتصال بي، وحدثتني في الأمر وشرحت لها وجهة نظري كاملة».. وكما يشير سعد الدين وهبه في روايته فإن

مشروع أم كلثوم بدأ التصدي للحديث عنه في عام ١٩٧١م، فيما يعني أن خطوات تسجيله رسميًا حسب رواية جيهان السادات استغرقت نحو عامين، كما لم يتم تسجيله إلا بعد تسجيل المشروع المماثل «الوفاء والأمل» لجيهان.

وفيما يبدو أن الأمر لم يقتصر على قضية المشروع الخيري، وإنما امتد إلى جوانب أخري لو وضعت جميعا في شريط واحد سوف تعطي ملمحًا مفيدًا.

يقول سعد الدين وهبه: عندما توفيت أم كلثوم، عام (١٩٧٤)، اقترحنا، واقترحت الصحف على محافظة القاهرة في ذلك الوقت، أن يطلق اسمها على الشارع الذي تسكنه وهو شارع (أبو الفدا).. وبعد أيام علمت من محافظ القاهرة أنه رجع لبعض أساتذة التاريخ، فرفضوا قائلين له: إن (أبو الفدا)، وأبا الفدا، هو على بن أبي طالب كرم الله وجهه، ،ويضيف سعد: قلت للمحافظ: إنه قول مغلوط، وأن أبا الفدا مؤرخ للأيوبيين، بل وأكبر دليل على ذلك أن الذي يتأمل مسميات شوارع منطقة الزمالك سيجد أن أغلبية الشوارع فيها أطلقت عليها أسماء الأيوبيين صلاح الدين.. شجرة الدر.. أيبك.. الصالح أيوب. إلخ.

واقترح المحافظ أن يطلق اسم أم كلثوم على شارع «الجبلاية» وهو امتداد شارع أبو الفدا من كوبري الزمالك حتى كوبري الجلاء..يقول سعد: وافقنا جميعًا مرحبين.. وضعت المحافظة لافتة واحدة (علي استحياء) ـ طول الشارع الذي يمتد طوله لأكثر من ٢,٥ كيلومتر، وضعتها فوق حائط نادي الجزيرة، وعندما أنشأت نفقًا بين شارع أبو الفدا.. وشارع أم كلثوم وافتتحه فؤاد محي الدين رئيس الوزراء (مطلع الثمانينات) أسمته نفق أبو الفدا.. وعندما وضعت في منطقة الزمالك لافتات تشير إلى الطريق عادت تستخدم اسم الجبلاية منكرة أسم أم كلثوم، ومازالت هذه اللافتات موجودة حتى اليوم تحمل اسم شارع الجبلاية المعروف مع أنه ما زال وأصبح شارع أم كلثوم، والذي غير اسم الشارع وأعاد تغييره مرة

أخرى، هي محافظة القاهرة

هكذا تم التعامل معها في سنواتها الأخيرة، وألقي هذا بظلاله بعض الشيء على ما بعد رحيلها.. غير أنها وفي سنواتها الأخيرة وتحديدا بعد رحيل جمال عبد الناصر استمرت في علاقتها مع بيته، يقول د.خالد عبد الناصر: «لم تنقطع أم كلثوم عن زيارتها لنا في أي مناسبة».. ظلت هي كما هي.. منذ أن دخلت منزلنا لأول مرة، وحتى رحيلها.. تحمل لنا المعزة والود والتقدير، ونحن نبادلها نفس الشيء. وكما قلت: كانت صديقة مقربة للوالدة.. أضف إلى هذا أنها كانت صديقة للأستاذ هيكل ولزوجته، التقيت بها كثيرًا بعد رحيل الوالد.. آخر مرة كانت في منزل هيكل وجمعتنا جلسة طويلة ضمت والدتي وشقيقتي هدي، وأنا والأستاذ هيكل وحرمه، كانت في هذه المرة متألقة كعادتها، وكأنها استدعت كل جوانب الجاذبية في شخصيتها.. بساطتها.. خفة دمها.. سرعة بديهتها.

- سألت د. خالد:« هل غنت أم كلثوم في بيت عبد الناصر»؟

- أجاب :«لم تغن في بيت عبد الناصر.. فلم يكن عبد الناصر يقيم حفلات غناء في منزله، هي كانت صديقة لبيت عبد الناصر.